نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس الواحد والعشرون

عناصر المحاضرة:

1. مراجعة غزوة الأحزاب.
2. غزوة بني قريظة.
3. مقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق.
4. أسر ثمامة بن أثال سيد اليمامة.
5. غزوة بني لَحْيَان.
6. سرية العيص وإسلام أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله - ﷺ-.

وصل في شوال عام 5هـ إلى حدود المدينة عشرة آلاف مقاتل من قريش وغطفان وبني سليم وغيرهم، ولم يكتف رسول الله بحفر الخندق، بل جمع الصحابة ثلاثة آلاف، ونظم نقاط الحراسة للخندق، وفرق للقتال، وكتائب للمقاومة، حتى يمنع المشركين من تخطي الخندق تحت أي ظرف.

وكان وقع المفاجأة مهولا على المشركين، إنها مكيدة ما عرفها العرب من قبل في فنون القتال، لقد أعدوا العدة لكل شيء، إلا أمر هذا الخندق المدهش.

بدأ المسلمون في رشق المشركين بالنبال لكي يمنعوهم من عبور الخندق أو ردمه، وحاول المشركون بكل ضراوة أن يقتحموا الخندق، ونجح بعضهم فعلا في العبور من مكان ضيق في الخندق بفرقة على رأسها أحد أبطالهم اسمه عمرو بن عبد ود، ومعه عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم، ولكن تصدى لهم المسلمون، حيث حدثت مبارزة رهيبة بين عمرو بن عبد ود وعلي بن أبي طالب حتى قتله علي رضي الله عنه، وهرب بقية الرجال الذين جاءوا معه، وتكررت محاولة المشركين مرة واثنتين، وعشرة، وتصدى أسيد بن حضير في كتيبة من مائتي مسلم لفرقة فرسان خالد بن الوليد واستطاع أن يردهم منهزمين.

كان الصراع يدور لفترات طويلة حتى أنه في أحد الأيام ظل المسلمون يدافعون عن الخندق من قبل صلاة العصر إلى ما بعد المغرب فضاعت عليهم صلاة العصر، وكان هذا الحدث فريدًا في السيرة، وانزعج المسلمون بشدة لأنهم أضاعوا الصلاة، وقال كما جاء في البخاري عن علي: "مَلأَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهَمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا كَمَا شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ".

بل إن مسند أحمد والشافعي ذكرا أن الكفار أضاعوا على المسلمين في يوم آخر صلاة الظهر والعصر والمغرب، فصلاها المسلمون جميعا مع صلاة العشاء.

✉كانت المقاومة فعلاً شرسة، وأصيب فيها بعض الصحابة، وطال الحصار، لم يكن يومًا أو اثنين، ولا أسبوعًا أو اثنين، بل لمدة شهر كامل، وكان الموقف صعبًا على المسلمين، كما كان صعبًا على الكافرين... قال تعالى {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ} [النساء:104].

📄خيانة بني قريظة:

✉بنو قريظة كما ذكرنا في اللقاء الماضي كانوا في الجنوب الشرقي للمدينة، فلو فتحوا الباب من جهتهم لدخول المشركين المدينة، لانتهت المدينة، فماذا يحدث لو حاربوا مع المشركين، ذهب حيي بن أخطب سيد بني النضير، أثناء هذه الغزوة، إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة فحسن له الغدر، وأغراه على نقض العهد، فنقض كعب العهد، وقام إلى جانب قريش والمشركين.

✉وقضى التحالف ليس فقط بفتح باب للمشركين لدخول المدينة، بل وتجهيز فرق عسكرية للحرب ضد المسلمين، كارثة! المدينة على أبواب هلكة قريبة... ماذا سيحدث لو تمكن عشرة آلاف مسلح إضافةً إلى يهود بني قريظة من اقتحام المدينة؟ يجب أن نضع هذا الأمر في اعتبارنا لكي نفهم رد فعل الرسول - ﷺ - على بني قريظة لِمَا بدر منهم من خيانة.

✉على الفور نقلت المخابرات الإسلامية إلى رسول الله نبأ خيانة اليهود له، وقبل أن يتخذ أي قرار أراد أن يستوثق من الخبر، أرسل مجموعة من الصحابة للتأكد، فيهم سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة وغيرهم، هذه هي الحكمة النبوية، في التثبت من الأخبار قبل إصدار الأحكام، فوجدوا اليهود على أخبث ما يكونون، فقد جاهروا بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله - ﷺ -، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فرجعوا وقالوا لرسول الله - ﷺ - عضل وقارة: "يعني أن قريظة على غدر كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع"

☜حزن الرسول حزنًا شديدًا لهذا الخبر لدرجة أنه تقنع بثوبه (غطى رأسه بالثوب) ومكث طويلاً، وفكر فيما سيحدث، ثم رفع رأسه فجأة وقال للمسلمين بصوت عال: "اللهُ أَكْبَرُ، أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ بِفَتْحِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ".

⇦لكن مع انتشار خبر خيانة بني قريظة، وصل المسلمون إلى المرحلة التي يزلزل فيها المسلمون زلزالاً لا يثبت فيه إلا الصادقون حقًّا، وأما المنافقون مهما كانت درجة نفاقهم فلا شك أنهم سيقعون، وصف الله هذا الأمر في سورة الأحزاب حيث قال: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب:10، 11].

⇦وهذا لحكمة واحدة، الابتلاء والتنقية والتمييز بين صفوف المؤمنين وصفوف المنافقين، مرحلة الزلزال، مرحلة خطيرة، لا بد منها قبل أن يأتي النصر، ولكن إذا أتت فمعناها أن النصر قريب بإذن الله، كما قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ} [البقرة:214].

⇦لكن المنافقين طبعًا وضعهم مختلف، المشركون من حول المدينة واليهود، لا أمل مطلقًا في نظرهم في النجاة، {وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا} [الأحزاب:12]، وكان أحدهم يقول: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

⇦وبدأ المنافقون في التسرب من الصف... الفرار {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}

[الأحزاب: 13]، بدأ الصف المسلم، والحمد لله، ينقى من الشوائب، من المنافقين، وهذا كله من مبشرات النصر، وأول ما فكر فيه رسول الله إرسال مجموعة من الجنود لحماية النساء والأطفال.

وفكر رسول الله في فك التحالف من خلال العرض المادي، والإغراء بالمال وإعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة لسنة كاملة على أن تعود غطفان وتترك حصار المسلمين، لكن سعد بن معاذ وسعد بن عبادة سيدي الأوس والخزرج قالا ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، وقبل رسول الله ﷺ مشوراتهما وأخذ بها.

وأصيب سعد بن معاذ بسهم في ذراعه أو كتفه وكانت الإصابة شديدة خطيرة وأخذ سعد يدعو الله: "اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدًا أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكِ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ، فَأَبْقِنِي لَهُمْ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكِ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ فَافْجُرْهَا وَاجْعَلْ مَوْتَتِي فِيهَا".

تأملوا! شاب عنده 37 سنة يرجو الله ألا يموت حتى يجهز على قريش، ويتمنى ألا يلتئم جرحه لكي يموت شهيدًا، عندما يصبح الموت أمنية، ثم قال في آخر دعائه: "وَلاَ تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ"، برغم آلامه وأوجاعه همه الدفاع عن المسلمين، وعن رسول الله ﷺ.

وكفى الله المؤمنين القتال:

تأزم الموقف جدًّا تحملوا في سبيل الله الجوع والبرد، حموا الخندق، ودافعوا عنه بأرواحهم، قاتلوا بضرواة، تعبوا، كافحوا، قاموا بالمشاورات، واجتهدوا في الدعاء؛ لأن النصر من عند الله.

كان المسلمين يدعون الله تعالى أيام الأحزاب يقولون: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا. وكان الرسول يقول: "اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ".

بعد أن بذل المسلمون كل طاقتهم، ووسعهم ومحاولاتهم، يأتيهم نصر الله بطريقة إلهية، وترتيب رباني، حتى يعلم الجميع، ويوقنوا أن النصر من عند الله، وجاء جنود الرحمن في الأحزاب:

الجندي الأول: جاء نعيم بن مسعود إلى الرسول يقول له: يا رسول الله، إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني ما شئت، فقال رسول الله: "إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ"، وذكرنا في اللقاء الماضي كيف استطاع أن يوقع الفتنة بين قريظة وقريش وغطفان، ويوقع في قلوبهم الريب والشك بعضهم من بعض، ويفتت جمعهم ورد الله كيدهم... {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: 82].

الجندي الثاني: الريح جندي هائل من جنود الرحمن، بعث الله ريحًا شديدة وقاسية البرودة على معسكر الكافرين لم تترك لهم خيمة إلا واقتلعتها، ولم تترك قِدرًا إلا قلبته، ولم تترك نارًا إلا أطفأتها، ووصلت شدة الريح وخطورتها إلى الدرجة التي دفعتهم لأخذ قرار العودة دون قتال وفك الحصار... {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: 82].

لماذا لم تلسط عليهم الريح من اليوم الأول؟! لماذا كان هذا بعد مرور شهرًا كاملا؟! كان ذلك حتى يمتحن المؤمنين، ويتميز الصادق من الكاذب، والمؤمن الصادق من المنافق.

ولماذا لم تهلكهم هذه الريح تمامًا مثلما أهلكت عادًا وثمود؟ لأن العليم الحكيم الخبير يعلم أن كثيرًا من هؤلاء الكفار سيسلمون بعد ذلك، برحمة منه سبحانه أمهلهم وأبقاهم لينالوا شرف الإسلام.

سبحان الله! الكون يجري وفق نواميس غاية في الدقة والإعجاز.

❍الجندي الثالث: الملائكة يقول الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} [الأحزاب: 9]

هزيمة الأحزاب: وتم نصر الله وأرسل رسول الله حذيفة بن اليمان إلى معسكر الكفار ليطمئن على سير الأحداث، وعلى فعل الرياح بهم وعلى أثر الفرقة التي أحدثها نعيم بن مسعود، فعاد حذيفة بالخبر الجميل وبالنصر العظيم، لقد عزم الجميع على الرحيل، كل ذلك بدون قتال.

قال: {وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} [الأحزاب:25].

⇦وانتهت واحدة من أعظم معارك المسلمين مع أنه لم يحدث فيها قتال، وكان الله يربينا ويعلمنا أن ليس المطلوب هو تحقيق النصر، ولكن المطلوب هو السعي من أجله، المطلوب هو طاعة الله والجهاد في سبيله، والثبات على ذلك والصبر والمصابرة لإعلاء كلمة الدين، وأما النصر فهو من عند الله، وفي الوقت الذي يقدره الله.

غزوة بني قريظة:

ورجع رسول الله - ﷺ- من الخندق ونزع السلاح والثياب، وبينما هو يغتسل في بيت أم سلمة جاءه جبريل - عليه السلام - وأمره بالنهوض إلى بني قريظة، وقال: إني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، ثم سار في موكبه من الملائكة.

أما رسول الله - ﷺ - فأعلن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب، وقدمه في جماعة إليهم، فلما رأوه سبوا الرسول - ﷺ - وقالوا قبيحاً، وبادر المسلمون في الخروج، وأدركت بعضهم العصر في الطريق فمنهم من صلى، ومنهم من أخر حتى وصل إلى بني قريظة، وخرج رسول الله - ﷺ - في موكب المهاجرين والأنصار حتى نزل على بئر من آبارهم اسمها: "أنَّا".

وألقى الله في قلوبهم الرعب، فتحصنوا في حصونهم، ولم يجترئوا على القتال، وحاصرهم المسلمون بشدة، فلما طال عليهم الحصار أرادوا أن يستشيروا بعض حلفائهم من المسلمين، فطلبوا من رسول الله - ﷺ - أن يرسل إليهم أبا لُبَابة ليستشيروه، فأرسله، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا: أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، يريد أنه الذبح، ثم تنبه أنه بإشارته هذه خان الله ورسوله، فمضى على وجهه حتى أتى المسجد النبوي، وربط نفسه بسارية من سواريه، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله - ﷺ - بيده، فلما بلغ رسول الله - ﷺ- خبره قال: أما إنه لو جاءني لا ستغفرت له، أما إذا فعل ما فعل فنتركه حتى يقضي الله فيه.

ومع طول الحصار انهارت معنويات بني قريظة، حتى نزلوا بعد خمس وعشرين ليلة على حكم رسول الله - ﷺ -، فاعتقل الرجال، وجعل النساء والذراري بمعزل عنهم في ناحية، وطلب حلفاؤهم الأوس أن يحسن إليهم، كما فعل ببني قينقاع حلفاء الخزرج، فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذاك إلى سعد بن معاذ. قالوا: قد رضينا.

وكان سعد في المدينة للجرح الذي أصابه أثناء غزوة الخندق، فجاءوا به راكباً على حمار، فلما قرب من رسول الله - ﷺ - قال: قوموا إلى سيدكم، فقاموا إليه، وأحاطوا به من جانبيه، يقولون: يا سعد! أحسن في مواليك، وهو ساكت لا يجيب، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فلما سمعوا ذلك رجع بعضهم إلى المدينة ونعى إليهم القوم.

ولما نزل سعد، وأخبر بنزول قريظة على حكمه، حكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله - ﷺ- لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات، وقد كان هذا الحكم أيضاً طبقاً لشريعة اليهود، بل أرق وأرحم من حكم شريعتهم.

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف، فإن بني قريظة، بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع، كانوا قد يخططوا لإبادة المسلمين ويدل على ذلك ما وجد عندهم من سلاح وغيره.

وعلى إثر هذا القضاء الذي قضى به سعد بن معاذ أتى ببني قريظة إلى المدينة، فحبسوا في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم ذهب بهم إلى هذه الخنادق أرسالاً أرسالاً، وضربت أعناقهم فيها، وكانوا أربعمائة، وقيل: ما بين الستمائة إلى السبعمائة.

وقتل معهم حيى بن أخطب سيد بني النضير والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، وكان من زعماء اليهود العشرين الذين حرضوا قريشاً وغطفان على غزوة الأحزاب، ثم كان قد جاء إلى قريظة، وأغراهم على نقض العهد، حتى غدروا بالمسلمين في أحرج ساعة من حياتهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن يكون معهم، يصيبه ما يصيبهم، فكان معهم في حصونهم أثناء الحصار والاستسلام حتى القتل.

وهكذا تم استئصال أفاعي الغدر والخيانة، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أحرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم، وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام.

وقد أسلم نفر من بني قريظة قبل النزول فلم يتعرض لهم، واستوهب بعضهم فتركوا وأسلموا، وقتلت امرأة من نسائهم، لأنها كانت قد طرحت الرحى على خلاد بن سويد فقتلته، وجمع السلاح والأموال فكانت ألفاً وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفى رمح، وخمسمائة ترس وحجفة، وأثاثاً كثيراً، وآنية وجمالاً وشياهاً، فخمس كل ذلك مع النخل والسبي، فأعطى للراجل سهماً وللفارس ثلاثة أسهم، سهماً لنفسه وسهمين لفرسه.

وأرسلت السبايا إلى نجد فابتيع بها السلاح، واصطفى النبي - ﷺ - منها ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خناقة، فيقال: إنه تسرى بها، ويقال: أعتقها وتزوجها، فتوفيت بعد حجة الوداع.

ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة سعد بن معاذ، وكان في خيمة في المسجد النبوي، ليعوده النبي - ﷺ - من قريب، فمرت عليه شاة فانتقض جرحه، وانفجر من لَبَّتِهِ، فسال الدم الغزير، وبدأت روحه تفيض إلى بارئها جل وعلا، فجاء إليه رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر.

تقول عائشة رضي الله عنها: «فو الله إني لأعرف بكاء رسول الله ﷺ من بكاء أبى بكر من بكاء عمر»، فقال له رسول الله ﷺ: «يا سعد جزاك الله خيراً فقد أنجزت ما وعدته ولينجزنك الله ما وعدك»، وفاضت روح سعد بن معاذ رضى الله عنه.

لَمَّا أُخْرِجَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ صَاحَتْ أُمُّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أُمَّ سَعْدٍ أَلا يَرْقَأُ دَمْعُكِ وَيَذْهَبُ حُزْنُكِ فَإِنَّ ابْنَكِ أَوَّلُ مَنْ ضَحِكَ اللَّهُ لَهُ وَاهْتَزَّ لَهُ الْعَرْشُ». مصنف أبي شيبة

وفي صحيح النسائي عن عبد الله بن عمررضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "هذا الَّذي تحرَّك له العرشُ، وفُتحَتْ له أبوابُ السَّماءِ، وشهِده سبعونَ ألفًا من الملائكةِ "وصحح الترمذي من حديث أنس قال: "لمَّا حُمِلتْ جِنازَةُ سعدِ بنِ معاذٍ قال المنافقونَ ما أخفَّ جنازتهُ وذلك لحُكمهِ في بني قُرَيظةَ فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال إنَّ الملائكةَ كانتْ تحملُهُ".

ومضى على أبي لبابة ست ليال تأتيه امرأته فتحله للصلاة، ثم يعود فيربط نفسه بالجذع، ثم نزلت توبته في بيت أم سلمة - رضي الله عنه - فبشرته بها، فثار الناس ليطلقوه فأبى حتى يطلقه رسول الله - ﷺ - ففعل حين مر به لصلاة الصبح.

وقد قام المسلمون بعد غزوة بني قريظة بعدة أعمال عسكرية أهمها ما يأتي:

مقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق:

هو تاجر أهل الحجاز، ورئيس يهود خيبر، وأحد كبار المحركين والمؤلبين للأحزاب على أهل المدينة، فلما تفرغ المسلمون من الأحزاب وقريظة انتدب لقتله خمسة من رجال الخزرج، ليحوزوا شرفاً مثل شرف الأوس حين قتلوا كعب ابن الأشرف.

ووصل هؤلاء إلى حصنه في جهة خيبر حين غربت الشمس، فقال قائدهم عبد الله بن عتيك: مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب، لعلي أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته، فهتف به البواب: يا عبد الله! إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب.

فدخل عبد الله بن عتيك، وكمن حتى نام الناس، فأخذ المفاتيح، وفتح الباب ليسهل له الهروب عند الحاجة، ثم توجه إلى بيت أبي رافع، فكان كلما فتح باباً أغلقه من داخل، حتى لو علم به الناس لا يصلون إليه حتى يقتل أبا رافع، فلما انتهى إلى بيته فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا يدري أين هو، فناداه: يا أبا رافع! قال: من هذا؟ فأهوى نحو الصوت وضربه ضربة بالسيف، وهو دهش، فما أغنت شيئا، فخرج ثم جاء مغيراً صوته، كأنه يغيثه، وقال: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال لأمك الويل، إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف، فعمد إليه وضربه ضربة أثخنته، ولم يقتله، فوضع السيف في بطنه وتحامل عليه حتى أخذ في ظهره، ثم خرج يفتح الأبواب باباً باباً، والليل مقمر، وبصره ضعيف، فظن أنه وصل إلى الأرض، فقدم رجله فوقع من السلم، فأصيبت رجله فعصبها بعمامته، واختفى عند الباب، فلما صاح الديك قام رجل على سور الحصن وقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فعرف أنه مات، فأتى أصحابه، ورجعوا، فلما انتهوا إلى رسول الله - ﷺ - حدثوه، ومسح رسول الله - ﷺ - رجله فكأنه لم يشتكها قط.

أسر ثمامة بن أثال سيد اليمامة:

كان ثمامة من أشد الناس كراهية لرسول الله - ﷺ - ولدينه الإسلام، حتى خرج متنكراً في المحرم سنة ٦ هـ يريد اغتيال النبي - ﷺ - بأمر مسيلمة الكذاب، وكان النبي - ﷺ - قد أرسل محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لتأديب بني بكر بن كلاب في ناحية ضرية بعد على بعد سبع ليال من المدينة في طريق البصرة، فلما كانوا راجعين وجدوا ثمامة في الطريق فأسروه، وجاءوا به إلى المدينة، وربطوه بسارية من سواري المسجد، فمر به النبي - ﷺ - فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ قال عندي خير يا محمد! إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل، تعط منه ما شئت فتركه، ثم مر به اليوم الثاني، ودار نفس الحديث، ثم اليوم الثالث كذلك، فقال: أطلقوا ثمامة، فأطلقوه، فاغتسل وأسلم، وقال: والله ما كان على ظهر الأرض من وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، ووالله ما كان على وجه الأرض من دين أبغض إلى من دينك، فقد أصبح دينك أحب الأديان إلي.

وفي العودة ذهب ثمامة إلى مكة معتمراً فلامته قريش على إسلامه، فقال: والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله - ﷺ - فلما انصرف منع بيع الحنطة لأهل مكة فجهدوا حتى كتبوا إلى النبي - ﷺ - يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى يسمح ببيع الطعام لهم، ففعل - ﷺ -.

غزوة بني لَحْيَان:

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرَّجِيع، وتسببوا في إعدامهم ، وكانوا متوغلين في الحجاز إلى حدود عُسْفَان ، فأخر رسول الله - ﷺ - أمرهم، حتى إذا تخاذلت الأحزاب واطمأن من الأعداء استعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج إليهم في الربيع الأول سنة ٦ هـ، في مائتين من الصحابة ومعهم عشرون فرساً، وأسرع السير إليهم حتى بلغ بطن غران، واد بين أمَجَ وعُسْفَان ، حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم، ودعا لهم، وأقام في ذلك المكان يومين، أما بنو لحيان ففروا في رءوس الجبال، فلم يجد منهم أحداً، وأرسل عشرة فوارس إلى عسفان لتسمع بهم قريش فيداخلهم الرعب، فذهبوا إلى كُرَاعِ الغميم، ثم رجع رسول الله - ﷺ - إلى المدينة بعد أن غاب عنها أربع عشرة ليلة.

سرية العيص وإسلام أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله - ﷺ-:

في جمادي الأولى سنة ٦ هـ أرسل رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة إلى العيص، في مائة وسبعين راكباً، يعترضون عيراً لقريش قادمة من الشام، كان يرأسها أبو عاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله - ﷺ -، فأخذها المسلمون، وأخذوا ما فيها، وأسروا رجالها، وأفلت أبو العاص فجاء على المدينة، واستجار بزينب، وسألها أن تطلب من رسول الله - ﷺ - أن يرد عليه أموال العير ففعلت، ورد عليه كل شيء، الصغير، والكبير، والقليل، والكثير.

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانة، فرجع إلى مكة، وأدى الأمانات إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فرد عليه رسول الله - ﷺ - زينب بالنكاح الأول، وذلك بعد ثلاث سنوات ونيف، ولم تكن آية تحريم المسلمات على الكفار نزلت إلى ذلك الوقت، فكان النكاح باقياً على حاله.

هذا، وقد أرسل رسول الله - ﷺ - عدة سرايا خلال هذه الفترة، وكان لها أثر بالغ في كبح جماح العدو، وإخماد شره، واستتباب الأمن وبسط السلام إلى أماكن بعيدة، ثم نقل إليه - ﷺ - ما أدى إلى قيامه بغزوة بني المصطلق.

المراجع:

❶روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.

❷الرحيق المختوم المباركفوري.

❸غزوة الأحزاب راغب السرجاني.